13

صديق بيت حنينا

يستقبلنا صديقنا ساري في منزله الواقع في بيت حنينا وهي ضاحية عربية هادئة في القدس الشرقية. ترحيبه بنا وابتسامته الناعسة يشعراننا بالراحة في شقته الجميلة. الوقت فجرًا، أشعر بأني منهكة من الطريق الذي قطعناه بين تل أبيب والقدس، بأني غريبة في هذا المكان الحار والرطب على أرض هذا البلد بهذه الكتابات العبرية المحيطة بي وذلك الحضور العسكري. تعاودني ذكرى هؤلاء المجانين في الطائرة. استغرب تماسكي وعدم إجهاشي بالبكاء. لا، لم أبكِ. لعلني في اللاوعي قررت الاحتفاظ بكل قواي، ليس قواي فحسب بل قوى كل أجدادي مجتمعة. كأني كنت أوفرها إلى أحداث ستقع لا ريب، كأني ألعب دوري كمرشدة لصغيري الذي يرافقني، ومن يلعب دورًا كهذا لا يفترض به البكاء!

ساري شخص واقعي وعملي وليس من هؤلاء الأشخاص الذين يتحسسون أو يدعون العواطف تتدفق على هواها. شعاره يختصر بعبارة: "ايه.. و... يالله! يالله، هوب هوب"!. أتعرّفُ على بيته واستمع لشروحاته السريعة حول تشغيل الأجهزة، وملاحظاته حول حريتي المطلقة في فعل ما أشاء والتنقل حيث أشاء دون أن يغفل التركيز على ضرورة خضوعي لقواعد المرور والأمن المتشددة و"المعروفة لي بالطبع"! كما يستدرك بابتسامة مفهومة المغزى.

لا يزيد قولًا فهو مشغول و"سبيد" (متعجل) ويجب التأقلم معه.

أخرج إلى الشرفة المطلة على المرتفعات في أول صباح في بيت حنينا، الأرض عارية إلا من قليل من المزروعات ومبان موزعة هنا وهناك وبعضها مهدم، وعلى الأرجح من قبل الإسرائيليين. أرى الناس يبنون ويعيدون البناء بدون كلل، متحلين بهدوء وصبر عجيبين.

رغبتي شديدة بزيارة المدينة القديمة في القدس الشرقية، المدينة العربية، الأسطورية بالنسبة لي. ساري يحاول ردعي فورًا ويقترح الذهاب أولًا إلى الجهة الغربية ويكرر محاولًا اقناعي "سترين، إنها رائعة!". لم أجرؤ على مخالفته، جررت نفسي خلفه والقلب منقبض فكيف لي أن أذهب لأرى جهتهم هم؟ كيف أذهب وألمس كم هم مستقرون وهانئون؟ مع هذا، ذهبت!

تفرغ لنا ساري وقادنا بكل نشاط وحيوية في الشوارع والميادين

والحدائـق. بيوت حجرية جميلة وضخمة و... باردة لا تروي ماضيها. كما لو أن شـيئًا لم يحدث خلال خمسـين عامًا. روعة لا تُخفى عليّ لكن شـعورا بعدم الارتياح يغمرني، ويتملكني احسـاس أني هنا شاهدة على سـعيهم بمحو آثار جريمة، وأني أرصد مـا لا تميزه عين طارئة، أنا عارفة ولا أكترث لنظرات مُتّهِمَة ولم أصب بالجنون والهلوسـة... نتقدم خلف سـاري الذي ينفعل بحماسـة أمام نبتة المجنونة المتعربشـة على واجهات المنازل:

– لا تنزعجوا! كل هذه البيوت كانت لنا... أقصد للعائلات الفلسطينية الكبيرة. انظروا، هذه كانت ملكية آل نسيبة، وتلك لآل العلمي أما هذه، انظروا جيدًا، فكانت للكبير ادوارد سعيد. يجب معرفة التاريخ. يجب أن نواجه هذا التاريخ، العواطف التي حشرنا أنفسنا فيها منذ خمسين عامًا لا تنفع كثيرًا.

غريب هذا الساري! يضحك وهو يحذرنا:

– انتبهوا حتى لا تصابوا بالهوس القدسي. انتبهوا! هذا شر لا رجعة عنه.

فعلا يصعب علي تحديد شخصية ساري دون أن يمنعني هذا بالاعتراف في قرارة نفسي بفضله وشروحاته.

يتابعنا ابني بكل تهذيب وهو نصف مذهول ونصف مأخوذ ويبدو كأنه لم يرَ بعد ما يرغب برؤيته ولا أدركَ ما يرغب بإدراكه. حاله كحالي على أية حال. فلننتظر!

صباح اليوم التالي يذهب أنيس برفقة ساري وابنته علا إلى رام الله مقر الجمعية حيث يعمل صديقنا، كانت الدورة التدريبية لابني فيها هي الحجة الرسمية لقدومنا إلى هنا. استجمعُ شجاعتي بصعوبة لأخرجَ من البيت، أذهب لنهاية الشارع وأترصد سيارة تاكسي. ليس التاكسي هنا سوى حافلة صغيرة عمومية يسمونها "فورد". نقف حيث تمر ونؤشر لها وحين تتوقف يسألك السائق فورًا، تجنبا للمشاكل، إن كانت لديك "الهوية". هويّة نادرة وقيّمة خاصة بسكان القدس ويمكن للسلطات الإسرائيلية أن تسحبها منهم لأقل سبب، مهما كان تافهًا.